قبل أن يصيح الديك

قصة تبدأ في فندق ميناهوس عند سفح الاهرام وتستأنف في الموسكي وحلوان وتختم في الصحراء

جلس ثلثة فتيان وفتاة حول مائدة صغيرة على دكة في فندق ميناهوس ، تُشرف على البادية . وفيما هم يراقبون مغيب الشمس ويمتّعون انظارهم برؤية الشفق ، تصبغ محيّا الافق المفشى بصفرة الحزن على فراق الغزالة ، أوحى اليهم جمال هذا المنظر الرائع ان يراعوا النظر ويجعلوا مدار حديثهم البحث في كل معنىً جميل وسامٍ كالايمان والإخلاص والصداقة والوفاء ومقتضياتها . فقالت الفتاة وعلى وجهها سيماء الرزانة والتروّي : « اما أنا فقد يسهل عليَّ اغتفار اية نقيصة او جريمة كانت ما عدا الغدر والخيانة . وعندي أن الصداقة تستلزم الامانة التامة بلا قيدٍ ولا شرط »

وقال روبرت مارتن ،وكان اصغر الشبان الثلثة سنّاً ،بلهجة الحاسة والاقدام:—

« هذه حقيقة لا يختلف فيها اثنان . ولا يخون صديقهُ الاّ كل سافلٍ ساقط الشأن »

وقال ديفد روك وعيناهُ ناظرتان الى الشفق برخي سدولهُ بعد تصرّم الشفق :

« ولكن ما قولكم اذا اضطرّ الانسان الى ارتكاب الخيانة في سبيل إنقاذ نفسهِ او الدفاع عنها ؟ فالحياة كما تعلمون عزيزة وشهية . وقد يأتي على الانسان حين يرى فيهِ حياتهُ متوقفة على خيانة صديقهِ والتضحية بهِ »

فردّت عليهِ الفتاة بحزم ولطف : —

« لا يا مستر ديفد ! ما من شيء على الإطلاق يسوغ خيانة الصديق وإسلامهُ للهلكة . وان الموت لافضل جدًّا من حياة موصومة بعار الغدر والخيانة . فالنار ولا العار »

« ولا خير في ردّ الردى بنقيصةٍ كما ردّهُ يوماً بسوءتهِ عمرُو »

فوقع كلامها احسن موقع في نفس ديفد وفتح عينيهِ فرأى للصداقة الحقيقية صورة اسمى جدًّا وابهى من صورتها التي كانت مرسومة قبلاً في ذهنهِ . وكان الشابّ الثالث فتىً شرقيًّا مليح الطلعة تلوح عليهِ سمات النبالة والذكاء . فنظر الى صديقهِ ديفد ومن فورهِ استدلَّ على تأثير كلام الآنسة لورين فيهِ واقتناعهِ بصحة رأيها في الصداقة

ثم التفتت الفتاة اليه وسألته : « ما رأي محمود بك في هذه المسألة ؟ ألا يستحق الإخلاص في شرعك ان يكون في هذه المرتبة الرفيعة ؟ »

« بلى ايتها الآنسة الفاضلة . فلقد اصبت ركبد الصواب في ما ذكرته عن هذه الفضيلة الجليلة . وعندنا نحن معاشر الشرقيين ان الإخلاص — الاحتفاظ بالتقاليد ورعاية اواصر القربى وصلات الصداقة — من اسمى الفضائل . وفي وسعنا ان نضرب صفحاً عن اشياء كثيرة . وفي بعض الامور ترينا اشدّ من الغربيين مساهلةً ومسامرة ونحن اصحاب القول « العفو من شيم الكرام » و« الكريم من عذر » ، الاّ في نقيصة الخيانة او معرّة الغدر فانها عندنا جريمة لا تغتفر ، في اقترانها عار وهوان مدى الزمان ولله ما قاله واحد من شعرائنا :

« فالمنايا ولا الدنايا وخير من ركوب الخنا ركوب الجنازه »

وقال الآخر :

« غير انّ الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا »

فقالت ايفا لورين خافضةً صوتها : « ومع ذلك تراني على الدوام شاعرة بالشفقة على الخائن الغادر . لذلك ارثي من صميم فؤادي لبطرس الرسول الذي بعد ما جاهر بانه مستعدٌ لان يموت عن سيّده ، انكره كل الإنكار »

واقتبس ديفد روك كلام الانجيل . « قبل ان يصيح الديك مرّتين تنكرني ثلث مرّات » . ونظرت الفتاة الى الشابّ المصريّ بين الخجل والاستحياء وقالت :

« لعلّ لك بعض الإلمام بكتابنا فتذكر بقية هذه القصة وكيف ان بطرس انكر المسيح جهراً امام الجميع و » ثم اسرت تتمّة كلامها بصوت خفي مهموس قائلة « وللوقت صاح الديك » فقال محمود بك برقة ولطف : « نعم . ولكنّ هذا الرسول نفسهُ ما لبث ان تذكر انكاره لسيده فبكى بكاءً مرّاً ثم مات اخيراً شهيد السيد الذي أنكرهُ » ثم نهض واقفاً وقال لها : — « لقد حان وقت رجوعي الى القاهرة . واخشى أن اكون قد أطلتُ مكثي عندك ايها الآنسة لورين وأسرفتُ في التثقيل عليك »

« لا . لم يكن شيء من ذلك على الإطلاق . ويسرنا دائماً ان تزورنا على السعة والرحب . واذا كان لا بدّ من ذهابك الآن أفلا تودّ ان تودع ابي ؟ ولعلك تروم رؤية بعض الصور التي يريد ان يطلعك عليها »

ثم ذهبت به الى ابيها . فقال رورت مارتن مخاطباً ديفد روك بلسان التبرم والتذمر

« لا استصوب الإفراط في العناية بشأن هذا الشاب الوطني . واقلُّ ما فيهِ انهُ ليس بانكليزي »

« نعم ولكنهُ من صفوة الشبان علماً وادباً وتهذيباً ، علاوة على كونه شريف الاصل وكريم المحتد . وما دام المرهنري لورن راضياً عنهُ وغير مبدٍ اقل مانع لصاحبتهِ ومصادقتهِ فمن الفضول أن نتعرّض لما لا يعنينا »

فذهب روبرت عابساً مقطباً وبقي ديفد وحدهُ ينظر الى الظلام المطبق على الصحراء بين القلق والاضطراب . لانهُ هو نفسهُ ودّ لو كان مشمولاً برعاية ايفا لورن وملحوظاً بعين عنايتها وبعبارة اخرى نقول انهُ احبّ هذه الفتاة الحسناء حبّاً تيّمهُ وتصبّاهُ حتى كان من دونهِ هيام قيس بليلاهُ . وكان يتوقع سنوح فرصة ينتهزها ويبوح فيها بوجدهِ وغرامهِ ويعرض عليها قبولهُ خاطباً لها

ولم يكن يشكّ في انّ العلاقة التي بين الشابّ المصريّ والفتاة الانكليزية لاتتعدّى حدود الصداقة . وعلم فوق ذلك من صديقٍ لهُ انّ محمود بك تجرّع خيبة املٍ مرّة في سبيل الحب من عهد غير بعيد . فإنّ الفتاة التي شغف حبّها فؤادهُ زُفّت منذ ستة أشهر الى واحد من كبار التجار الاغنياء في القاهرة ولكنهُ طاعن في السنّ . ومّما علمهُ من هذا الخبر ان محموداً باقٍ يعلّل نفسهُ بإمكان استرداد حبيبتهِ ياسمين وانتزاعها من يد المغتصب

وكان محمود صديقاً صادقاً للشابّين الانكليزيّين اللذين كانا كلاهما من موظفي الحكومة المصريّة في القاهرة ، لا يألو جهداً في عمل ما يسرّها وقضاء ما عسى حاجتهما اليهِ . كان يُعيرها جوادين من كرام خيلهِ ويدعوهما من وقت الى آخر لتناول الغداء او العشاء في بيتهِ الفخم الانيق في شارع شبرا . وكان مثلاً مضروباً في دماثة الاخلاق ورقّة الجانب ولين العريكة . فكان ديفد يأنس بهِ ويرتاح لمعاشرتهِ . امّا روبرت فوجد ، او ادّعى انهُ وجد في أثناء صحبتهِ ما أغارهُ من اختصاص الآنسة لورن لهُ بالرعاية والالتفات . وعلى توالي الايّام ظلّ محمود يتعهّد ذينك الشابّين بمعروفهِ وجميلهِ . فكان لهذا العمل الجيد احسن تأثير حتى في غيرة روبرت فاستأصل شأفتها من صدرهِ ولكنّهُ لم ينفكّ غير مستحسن لمرور ايفا بصحبة محمود

٢

وفي الاسبوع الاول من العام الجديد ذهب المر هنري وكريمتهُ الى حلوان

لقضاء بضعة ايام . ودعوا ديفد وروبرت لحضور حفلة رقص في الفندق . وكان نور القمر الساطع اكبر معين على جلاء محاسن تلك الحفلة الشائقة . ولم تبدُ ايثا لورين قطّ لعيني ديفد بمثل البهاء الباهر والحسن الخالب الساحر اللذين بدت بهما في تلك الليلة . لكنّهما عند ما خرجا في فترة الرقص الى حديقة الفندق واطلاّ من جدارها على الصحراء الفسيحة الأرجاء كان حديثهما خارجاً عن ذلك السهل المطمئنّ الذي نشر عليه ضياء القمر بساطاً من لجين وجعله طيباً للنفس وقرة للعين

كان موضوع حديثهما نبأ القتل الصادع الذي ذاع في ذلك اليوم فارتجّت لهُ القاهرة — مقتل ياسمين اجميلة زوجة الكهل عليّ لا لا الصائغ الشهير في الموسكي . هذا الحادث الخطير استطار خبرهُ فتناقلتهُ الالسنة مقترناً بذكر محمود بك . ولما بلغ مسمع ايثا استزادت ديفد إيضاحاً وتفصيلاً فاجابها بما خلاصتهُ ان محموداً هام بياسمين الحسناء وهي هامت بهِ . ولكن كان حبّهما سرًّا مكتوماً . ويظهر ان قلب هذه الغادة كان كالغصن يميل مع كل ريح تهبُّ عليهِ وتسرُّ حديث الوجد اليهِ . وحدث انَّ محموداً زارها مرّة في اثناء غياب زوجها على غير توقّع ولا انتظار فوجدها بين ذراعي محبٍّ آخر . ومن فورهِ أطلق عليهما الرصاص فقتلها وتوارى عن الابصار والى الآن لم يوقف لهُ على اثر . ولما فرغ ديفد من كلامهِ قالت ايثا والحزن آخذ منها كلّ مأخذ : « يالهُ من خبر يبعث على الاسف والاكتئاب ! ولكن محموداً كان داعاً نموذج الرقّة واللطف وعنوان الرصانة وبعد النظر . فيصعب على من يعرفهُ ان يتصوّرهُ من زمرة القتلة سافكي الدماء »

« اظنّهُ اقدم على ارتكاب هذه الجريمة تشفّياً وانتقاماً بل بالحريّ عقاباً لياسمين على خيانتها . ولعلَّ تربيتهُ الشرقيّة والعادات التي شبَّ عليها تهوّن عليهِ ركوب هذا المركب الخشن »

« ولكنّهُ كان يحبّ ياسمين محبة تفوق الوصف مع كونها زوجة رجل آخر »

« نعم . وكان قد خطبها منذ وقت طويل . وفي اثناء غياب محمود عن القاهرة زوّجها ابوها للصائغ الكهل . فعوقبت تلك المنكودة الحظ بالقتل جزاء ما كانت عليهِ من سرعة التقلّب والتحوّل . أمّا محمود فقد لا يتاح لنا ان نراهُ بعد الآن »

« اذن لاذ باطراف الفرار ؟ »

« نعم . اوغل في الصحراء . وذهب الى حيث يتعذّر اقتفاء اثرهِ والقبض عليهِ .

وسوف نشعر بوحشة وغمٍّ على فراقه . لأنهُ كان على جانب عظيم من حسن التأول وكرم الضيافة

« هذا لسان حال الجميع — جميع معارفهِ واصدقائهِ . ولا أعلم هل هو آسف الآن على ما بدر منهُ في ساعة الغيظ والحنق ؟ ولا ادري هل زالت محبتهُ لياسمين عند ما تحقق خيانتها لهُ ؟ »

« ليست المحبَّة مما يسهل زوالهُ بهذه السرعة »

قال ديفد هذا واستعان بضياء القمر الباهر وجلال البادية الساحر على حل عقدة لسانهِ وإعلان ما لم يبق عندهُ صبر على كتمانهِ . ولم يلبث ان رفع نظرهُ اليها وقال لها :

« اعلمي يا إيفا أن تعريضك بذكر المحبة هاج بي الشوق الى التصريح بما في نفسي فصدت غير قادر على السكوت عنهُ . افلا تدرين أني أحبكِ وأني كنت هذه المدة كلها كاتماً محبتي لك غير بائح بسرها لاحد ؟ اولا تكافئيني على هذه المحبة بمثلها — او على الاقل بما يساوي جزءاً منها ؟ تريّثي في الجواب ولا تعجلي ! أعيري هذه المسألة ما تستحقهُ من التأمل . واذا صحت عزيمتكِ على إجابة سؤلي كنت اسعد انسان في العالم ! »

ثم ساد سكوت عميق رهيب وكأنَّ البادية نفسها اشتركت فيهِ واخذت نصيبها منهُ وبعث القمر بضيائهِ صفائح محيّا إيفا الجميل وكساهُ حلة لجينيَّة زادتهُ اشراقاً وبهاء . ونظر اليها ديفد وهو جالس بجانبها فرأى صدرها يخفق تحت ثوبها الحريريّ البنفسجيّ اللون . وبعد تأمّلٍ وجيز التفت اليهِ وقالت :

« هل تعني ما تقول ؟ هل تحبّني ؟ أتروم ان أكون زوجة لك — يوماً ما ؟ »

« نعم . نعم . يا إيفا . هذا ما اعنيهِ . وانتِ — اتروين أن تجيبيني بالرضى والقبول ؟ اني لشدة فرحي وابتهاجي أكاد اشكُّ في إمكان فوزي بهذه الامنيَّة العظمى ! »

فقالت وقد صبغ الحياء وجهها الناصع البياض وطبع على كل خدٍّ وردة :

« اذا كنت تروم الاقتران بي وأمهلتني قليلاً فإني مستعدَّة بملء السرور ان أصرّح بالرضى والقبول ! »

ولما عُرِض هذا الامر على ابيها السر هنري لورن لم يبدِ اقلّ معارضة ولكنهُ اشترط كتمان خبر الخطبة مدة الاسابيع التي كان مزمعاً ان يقضيها هو وابنتهُ في القاهرة . وقال للخطيب ان ابنتهُ لا تزال دون العشرين وان انتظار بضعة اشهر لا يكون لهُ اقلّ تأثير في سعادتهما المستقبلة . فوافق ديفد على ذلك شاكراً مسروراً

٣

وكان قد سبق واتفق هو وروبرت ان يذهبا الى البادية راكبين ويقضيا ثلاثة — او اربعة — ايام يجولان في اطرافها . وربما أن يكون ذلك في اثناء غياب السر هنري وابنتها في الاسكندرية . وكان روبرت لا يعلم شيئاً عن خطة ديفد لايقا . وفي صباح اليوم التالي ، بعد ما برح السر هنري وابنته القاهرة ، امتطى كلٌّ من الشابين حصانهُ وأغذّا السير في طريق الصحراء

اما محمود بك فالأخبار عنهُ ظلّت الى هذا الوقت منقطعة السبب ومنطمسة الاثر مع شدة اهتمام سكّان القاهرة بها واجتهادهم في تنسّمها وتسقّطها . لانهُ كان محبوباً مكرّماً عند جميع الذين عرفوهُ وكثير ما هم . وكان الرأي العامّ مؤاسياً لهُ وعاطفاً عليهِ وقادراً لبسالتهِ حقّ قدرها . وقد بذلت الحكومة ما في طاقتها من الاجتهاد في التفتيش عنهُ فذهبت مساعيها ادراج الرياح ولم تقترن بشيءٍ من النجاح . وفيما كانت عزيمتها صائرة الى الوهن والفتور عرض لها ما شحذ حدّها وجدّد نشاطها وهو قدوم رجلين من اعيان السودان تلوح عليهما امارات النبالة والوجاهة . هذان الرجلان قالا عند وصولهما الى القاهرة انهما أخوا ياسين القتيل وقد اتيا ليقتفيا اثر القاتل ويمكّنا العدالة من معاقبتهِ على ما جنتهُ يداهُ

وهذان الرجلان كانا موضوع حديث روبرت وديفد حينما برحا القاهرة في يوم من ايام يناير قاصدين البادية . فقال روبرت :

« اني آسف جدًّا على ما يلقاهُ محمود بك من هذين الرجلين اذا تمكّنا من العثور عليهِ » . وقال ديفد : « نعم لانهما سوف يرقبان بهِ اشدّ ضروب النكال . ولكنني اتوقّع انهُ اصبح الآن في مأمن من هذا الخطر . وارجو من صميم فؤادي ان يصح ظني هذا وينجو صديقنا محمود من ايدي مطارديهِ . وكان يجب على اختهما ان ترعوي عن طيشها ولا تمكر بمحمود الصادق الامين »

« تلك شيمة بعض النساء . فإنّ قلوبهنّ كأبي رياح[1] تدور باضعف هواء »

« وهي ايضاً شيمة بعض الرجال . ومن قديم الزمان اشتهر الانسان بنكث العهود ونقض المواثيق »

« نعم . ولكن شيوع هذه الخلّة الشنيعة بين النساء اكثر منهُ بين الرجال فلا

(١) مثل في الطيش وسرعة التقلب

يسهل على الرجل ان يغدر بخليله كما يسهل على المرأة ان تخون صديقتها. اما انا فيصعب عليَّ أن أتصوَّر نفسي مسلماً صديقي للهلكة في سبيل إنقاذ حياتي »

فقال لهُ ديفد برزانة ووقار: « اخاف انهُ ليس في طاقتك تحقيق هذه الدعوى المريضة. فالحياة عزيزة وغالية وليس في استطاعة احدٍ ان يعلم كم يجب عليهِ ان يفعل ليحول دون انطفاء مصباح حياتهِ ودنوّ يوم وفاتهِ »

فردَّ عليهِ روبرت بلهجة الصلف والعناد وقال: —

« على كلّ حال هذا شعاري. وهذه المشكلة — مشكلة الامانة حتى الموت — قلما تعرض للناس. ولكني واثق كلَّ الثقة بأني مستعدٌّ للعمل بموجب قولي هذا في اية حالة كانت ». وعند هذا الحدّ وقفا في كلامهما على هذا الموضوع وقضت المقادير ان يذكراهُ عما قليل

٤

وفي صباح اليوم التالي هبَّ عليهما إعصار[1] شديد انتشرت سحبهُ في جوّ البادية كلها انتشاراً كثيفاً مخيفاً حجب عنها ضياء الشمس وغشّى على الضارب في فلواتها بظلام دامس يعمي الابصار. وغادر ديفد وروبرت وجواديهما في اسوإِ حالةٍ. تلقى الجوادان ما لا يطاق من ضروب الإِعنات والإِرهاق وهما يخبطان براكبيهما على غير هدًى في ذلك الديجور المطبق ويتفصَّدان عرقاً. وعانى الفارسان ما لا يوصف من تلك الريح الهوجاء العاتية التي عصفت عليهما عصفاً عنيفاً برَّح بهما وكاد يوردهما مورد التلف. فكانت الريح تلفحهما بلهيب يشوي الجسوم ويذيب حبَّات القلوب وتثير الحصباء والرمال وتسفيها في وجهيهما وتذيقهما امرَّ كؤوس العناء والعذاب

وعند مغيب الشمس أخذ ديفد بعنان جوادهِ وتاهُ عن المسير وصاح باعلى صوتهِ منادياً رفيقهُ الذي حجبهُ عنهُ غسق الإِعصار، وقائلاً لهُ:

« عبثاً تحاول يا روبرت مواصلة المسير تائهين ضالين ومستهدفين لخطر الموت جوعاً وعطشاً وإعياءً. فمن الصواب ان نفتش عن ملجإٍ لنعتصم بهِ ونتوقع الفرج »

فاجابهُ روبرت بصوت ينمُّ عن شدة اللغوب وفرط الاعياء: —

« ولكن اين نجد هذا الملجأ؟ ما لعين الملاجيء من اثر في هذه المفازة المهلكة.

(١) ريح تهب من الارض كالعمود نحو السماء. ويعرف بالهبوب والعرب تسميه زوبعة والهوجاء الريح التي تقلع البيوت، والعاتية الشديدة العصف

ويلاهُ ! هوذا الإعصار يستأنف الكرّ بما لا مزيد عليهِ من الشدة والعنف ! »

وما فرغ من كلامهِ حتى ابصرا ريحاً زعزعاً تشنّ عليهما غارة شعواء وتعطرها بوابل من الرمال والحصباء وكانا قبل تعرُّضهما لها قد تقاربا ووقفا احدهما بجانب الآخر . فلما غشيتهما الزوبعة لطمت الجوادين لطمة شديدة فسقطا والقيا راكبيهما الى الارض . وكان من حسن حظّ ديفد أنّهُ تمكّن من النهوض والقبض على عنان جوادهِ . لكنهُ لم يقدر ان يرى رفيقهُ . فهالهُ الامر لانّ حالتهما الحاضرة تقضي بان يكونا قريبين احدهما من الآخر ليتّحدا متكاتفين على صدّ تيّار الإعصار ودفع ما تعرّضا لهُ من الاخطار . فصاح باعلى صوتهِ منادياً رفيقهُ باسمهِ مرّة بعد مرّة من غير ان يلقى مجيباً . واخيراً سمع صوت مجيب ولكن من جهة اخرى

فظل ديفد رافعاً صوتهُ بالنداء وهو يتلقّى صدمات الاعصار قابضاً بيدهِ الواحدة على عنان جوادهِ ومتلمساً بيدهِ الاخرى طريقهُ تحت ستر الظلام الحالك . واذا بشخص عرض لهُ فجأة وخاطبهُ باللغة الفرنسية قائلاً لهُ ما ترجمتهُ : —

« أراك زائغاً عن طريق الهدى » . ثم كلمهُ باللغة الانكليزية بجدٍّ واهتمام قائلاً : —

« لم يدر قط في خلدي ان التي السيد ديفد ضالٌّ في غمرة هذا الإعصار ! »

— « نعم . ولكن اصحيح انك انت محمود بك ؟ » — قال ديفد هذا لانهُ بالجهد استطاع ان يصدق ان هذا الشخص ذا اللحية والعباءة هو صديقهُ . فاجابهُ محمود هازاً كتفيهِ وباسماً بسمة التهكم والاستهزاء : —

« لك الحق ان تستغرب ذلك . ولكن هكذا قدّر فكان . وها انا الآن قاتلٌ لاجيء الى الفرار وهارب من وجه العدل

— « بلغني بعزيد الاسف كل ما اصابك . فهل انت بمأمن هنا او على الاقل سائر في طريق الامان ؟ »

— نعم . فبعد عناءٍ واربعين ساعة تراني بمنجاة من كل خطر وبين اصدقاء يفتدوني بارواحهم ولا يسلموني . اما الآن فاني لاجيء الى مخيمٍ قديم ريثما تنكشف غمة هذا الإعصار . ويسرّني ان اعرض عليك مشاركتي في هذا الملجإ . اظنك لست وحدك هنا ؟ »

— « معي رويرت فقط . وسنقبل كلانا دعوتك هذه بشكر يقصّر عنهُ الكلام »

— « اهلاً بكما ومرحباً ! واظنني ارى صديقك من خلال سُحب الإعصار »

(البقية في الجزء التالي) ترجمة : اسعد خليل داغر